الفصل الأول

تمهيد

إسرائيل دولة كبرى ثم . إسرائيل دولة صغرى

obeikandl.com

obeikandl.com

إسرائيل . . دولة كبرى ! !

لكى نتبين حجم الطوفان العربى الذى اجتاح إسرائيل فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ يتحتم أن نلقى نظرة مدققة على الواقع الإسرائيلى قبل « الطوفان » ، وبالتحديد بعد يونية ٦٧. هذا الواقع الذى يكفى جداً أن تلخصه تلك الجملة التى قالها أحد جنرالاتهم – منتشياً بالإحساس بالقوة – « إن إسرائيل الآن واحدة من الدول الكبرى » . وقد يكفى أيضاً أن نتذكر تصريح الجنرال شارون حين قال : « إن إسرائيل مستعدة لمحاربة حلف وارسو . . وهى قادرة على توجيه ضرباتها القاسية حتى القطب الشمالى ! ! » أقول . . قد يكفى هذا التصريح أو ذاك . . ولكننا ما دمنا بصدد دراسة علمية وثائقية . . فإننا – حتى لا يقال إن تلك الكلمات صدرت عن شخصين لا يمثلان إسرائيل – سوف نتوقف بشكل تفصيلى أمام أقوال وتصريحات وتصرفات مختلف عناصر القيادة الإسرائيلية والأفراد العاديين أيضاً. لنرى عدة صور توضح كيف كانوا ينظرون إلى أنفسهم وكيف كانوا ينظرون إلى العرب قبل السادس من أكتوبر ١٩٧٣ .

الصورة الأولى : لافتة فوق نقطة حصينة :

« كان ذلك فى أحد الأيام الأخيرة من عام ١٩٦٨ ، والمكان هو موقع رأس العش فى شرق القناة والذى تشبث به القوات المصرية ولم تنسحب منه فى يونية ٦٧ بل قامت بصد وتدمير جميع الهجمات الإسرائيلية عليه والتى استمرت منذ ذلك التاريخ حتى وقف حرب الاستنزاف » . . وفى ذلك اليوم تحرك قائد الموقع المصرى فى عملية استطلاع للمواقع الإسرائيلية القريبة منه . . وحين وصل إلى نقطة (التينة) الحصينة . . شدت نظره لافتة ضخمة وضعها الإسرائيليون فى مكان بارز من الحصن . . ، وبدأ الرجل فى قراءتها وهو يشعر أن سكيناً حادة تمزق صدره . كانت اللافتة مكتوبة بثلاث لغات : « العربية » . . والإنجليزية والعبرية . . » وقد تضمنت الكلمات التالية :

« سنة ١٩٤٨ ـــــ أخذنا فلسطين .

سنة ١٩٥٦ ـــــ أخذنا شرم الشيخ .

سنة ١٩٦٧ ـــــ أخذنا سيناء .

سنة ١٩٧٥ ـــــ سنأخذ القاهرة ! ! ! ».

نسى الرجل نفسه لحظات . . وأخذ يعيد قراءة اللافتة الإسرائيلية وكأنه قد استمرأ تعذيب نفسه . . ، وفى أثناء ذلك نادى عليه جندى إسرائيلى – ولم يكن هو يضع علامات رتبته فوق كتفيه والتى تبين أنه قائد . وقال له الجندى .

« مصرى . . يا مصرى . . أنا كنت فى العريش إمبارح وكنت نايم مع أختك هناك ! ! ».

. . وغلى الدم فى رأس الضابط المصرى . . وأحس بأن صدره يتمزق أكثر . . لكنه لم يرد عليه . . ودعا الله أن يأتى اليوم الذى يكون فيه الرد العملى البليغ . (بل إنه اقترح بعد ذلك على القائد العام حين بدأت حرب الاستنزاف أن يقوم باحتلال هذه النقطة أثناء أى اشتباك ، ولم يتصدق له بذلك .)

• **ملحوظة بالغة الأهمية** : فى ٦ أكتوبر ٧٣ كان هذا الضابط الذى أصبح عقيداً قائداً للواء مشاة سمى باسم « لواء النصر » ، وقد وجه هذا اللواء ضربات عنيفة للقوات الإسرائيلية ، واستولى على أكثر من نقطة قوية . وكانت شجاعة قائده (العقيد عادل يسرى) مثار الإعجاب ، حتى إنه سمى « روميل العربى » .

الصورة الثانية : كل شىء . . على ما يرام !

الزمان : يونية عام ١٩٧٣ . **المناسبة** : انعقاد المؤتمر الاقتصادى فى إسرائيل . الجنرال موشيه ديان يقف أمام أعضاء المؤتمر ، ليلقى بخطبة جديدة من سلسلة خطبه العديدة . ويقول وابتسامة الثقة ترتسم على شفتيه :

« طالما أن لنا جنوداً إسرائيليين ، وأن قناة السويس هى حدودنا العسكرية وأن العرب هم أعداؤنا . . فإن كل شىء على ما يرام » .

هكذا تحدث الجنرال ديان الذى استقبل المؤتمرون كلماته بالتصفيق والهتاف . . وربما ابتسم الكثيرون منهم . . وهو يقول : « طالما أن العرب هم أعداؤنا . . فإن كل شىء على ما يرام » .

الصورة الثالثة : « ونحن لا نبالى » :

مجموعة من الشباب الإسرائيلى . . يمسك أحدهم براديو ترانزستور . . انطلقت منه أغنية مشهورة فى إسرائيل – وأخذ الجميع . . يرددون مع المغنى :

العالم كله ضدنا . .
لا يهمنا ! !
العالم كله ضدنا . .
ونحن لا نبالى
العالم كله ضدنا . .
لا يهمنا ! !

الصورة الرابعة : « لا نخجل من شىء ! » .

* **الزمان** : ١٠ أبريل عام ١٩٧٣ . **المكان** : قلب بيروت .

* تسلل عدد من جنود الكوماندوز الإسرائيليين الذين أحسن تدريبهم إلى قلب العاصمة اللبنانية (العربية) وقتلوا ثلاثة من القادة الفلسطينيين داخل بيوتهم إذ أمطروهم بوابل من رصاص بنادقهم الرشاشة الجديدة من طراز « جليل » المصنوع فى إسرائيل . (إنه عمل رمزى) .

حدث ذلك . . ولم تعبأ إسرائيل بردود الفعل العربية والعالمية . لهذا العمل الذى يتسم بالغدر والتبجح . حتى أن السيدة جولدا مائير رئيسة الوزراء وقفت أمام عدسات المصورين وقد ملأت الابتسامة السعيدة تجاعيد وجهها . . وهى تقول « إنها عملية رائعة . . إننا – فى إسرائيل – يجب ألا نخجل من شىء ! ! .

وتنتقل الكاميرات إلى بقية القادة والجنرالات . . وتتسم كل التصريحات باحتقار العرب . والاستهزاء بالرأى العام العالمى . بل إن رئيس الأركان – الجنرال دافيد اليعازار قال وهو يشير بسبابته : « لسوف يأتى اليوم الذى نفعل فيه الشىء نفسه فى العاصمة الليبية طرابلس » .

الصورة الخامسة : « من الخرطوم إلى . . بغداد . . إلى الجزائر . . والعكس ! ! »

الزمان : ٢٠ يولية ١٩٧٣ **المكان** : صفحات جريدة معاريف

* تتصدر الصفحة الأولى صورة القائد الإسرائيلى المنتفخ الأوداج إريل شارون . . بمناسبة إدلائه بتصريح جديد . . قال فيه بالحرف الواحد : إن إسرائيل الآن قوة عسكرية عظمى ، فأى دولة أوربية أضعف منها عسكريًّا .

« إننى أرى أنه ليس هناك أى هدف عسكرى أو مدنى من الخرطوم إلى بغداد والجزائر – بما فى ذلك الأراضى الليبية – إلا ويستطيع الجيش الإسرائيلى غزوه فى خلال أسبوع واحد » .

الصورة السادسة : « لو أطلقوا قذيفة واحدة ! ! »

* **الزمان** : أحد أيام شهر فبراير عام ١٩٧٣ **المكان** : مرتفعات الجولان .

* مجموعة من الشباب الإسرائيلى يقومون بزيارة للجولان ، يقف بينهم الضباط اليهود . . ويقولون لهم ضاحكين :

« انظروا إلى العرب . . إنهم إذا أطلقوا قذيفة مدفع واحد . . فإننا سنكون فى دمشق فى اليوم التالى مباشرة » .

. . وتنطلق الضحكات من الجميع !

الصورة السابعة : « أيها الجبناء . . ماذا تنتظرون ! ! »

* **الزمان** : مارس ١٩٧٣ **المكان** : الساتر الرملى على الضفة الشرقية لقناة السويس .

* مجموعة من الجنود والضباط الإسرائيليين . . تركوا موقعهم ووقفوا فوق الساتر بجوار إحدى نقاط الملاحظة . . يأكلون البرتقال ويلقون بالقشر فى مياه القناة الراكدة ، ويصيحون على بعض الجنود المصريين فى موقعهم بالضفة الغربية . . ويحركون أصابعهم نحوهم بشكل فاضح ومستفز . ولا يكتفى أحدهم بذلك بل يهبط من فوق الساتر . ويفك أزرار بنطلونه . . لكى يتبول فى القناة !. . ويظهر ضابط مصرى . . وفى يده ميكرفون صغير ويوجه كلامه للجنود الإسرائيليين ، متحدثاً عن ضرورة وقف الاستفزاز . . وعن الدوافع الإنسانية

والأخلاقية التى ينبغى أن تدفعهم إلى مناقشة قادتهم فى سياستهم العدوانية التوسعية . ثم يحدثهم عن جماعة الفهود السود فى القدس وكيف تحمل راية العصيان على المؤسسة العسكرية – وللسياسة العنصرية والتوسعية التى تتحكم فى إسرائيل .

* ولم يكد الضابط المصرى ينتهى من كلماته ، حتى تدافع الجنود الإسرائيليون على ميكرفون أمسك به أحدهم ، وأخذوا يتسابقون إلى إلقاء النكات القاسية والجارحة على الجنود المصريين ، كما تحدثوا عما أسموه بالتخلف فى مصر والجبن الأبدى الذى يطبع الجيوش العربية فى مواجهة جيش الدفاع الأسطورى . . ولم يكتف أحدهم بذلك بل إنه أمسك بالميكرفون وأخذ يصيح فيه موجهاً كلامه للجنود المصريين الذين ظلوا فى أماكنهم على الضفة الغربية يسمعون أو يتجاهلون ما يدور فى تلك الساعة .

* **قال لهم الجندى الإسرائيلى :**

« ماذا تنتظرون كى تعبروا ؟ هذه ليست بحرب ولا بسلام أيضاً . إنه حائط أيها الجبناء ! ! » .

* فى تلك اللحظة بالذات قبض الجندى عطية على رشاشه وكاد يفتح نيرانه عليهم لولا أن أمسك به زميله « صابر » وأخذ يهدئ من ثورته . . وكانت الدموع تطفر من عينى « صابر » جندى المؤهلات الذى مضى على وجوده فى هذا الموقع ثلاث سنوات كاملة .

ودعا الضابط المصرى جنوده إلى النزول إلى خنادقهم . . وظل هو مكانه . . لا تبتعد نظراته عن مياه القناة الراكدة . . ولم تهدأ ضحكات الجنود الإسرائيليين فوق الساتر الشاهق .

الصورة الثامنة : « أنا بمفردى . . أوقفهم ! ! »

فى أحد أيام عام ١٩٧٠ . . سأل صحفى جنرالاً إسرائيلياً (عمل كرئيس للأركان قبل ذلك) عما قد يحدث لو حاول المصريون عبور القناة ، فقهقه الجنرال . . وأخذ يدق بيده على فخذيه . . ثم رد على الصحفى قائلا : « إننى – بمفردى – وبمدفع هاون عيار ٨١ – أستطيع أن أوقف عبورهم » .

الصورة التاسعة : « السادات . .لم تواته الشجاعة ! ! »

١ – فى ١٩ سبتمبر ١٩٧٣ وجهت جولدا مائير رسالة إلى يهود الشتات بمناسبة العيد الجديد . قالت فيها :

« إن هناك سببين رئيسيين للهدوء الذى يسود خطوط وقف القتال هما قوة الردع لدى الجيش الإسرائيلى ، والقوة الداخلية فى إسرائيل » .

٢ – فى ٣ سبتمبر من العام نفسه وعند افتتاح مستعمرة (هامبوهاد) قالت رئيسة الوزراء الإسرائيلية :

« إن السادات لم تواته الشجاعة لكى يعترف بأن عليه أن يقيم السلام مع إسرائيل لأنه عاجز عن هزيمتها فى ميدان القتال » .

الصورة العاشرة : « نحن . . الأقوى »

الزمان : ٩ أغسطس ١٩٧٣ **المكان** : الأكاديمية العسكرية الإسرائيلية

المناسبة : تخريج دفعة جديدة من الأكاديمية .

المتحدث : الجنرال موشيه ديان .

التصريح : « إن ضعف العرب يأتى نتيجة عوامل أعتقد أنها لن تتغير فى وقت قريب. **وهذه العوامل هى** : المستوى المنخفض لتعليم جنودهم وقدرتهم التكنولوجية ، والانقسامات السائدة فى العالم العربى – أما شبابنا الإسرائيلى فعلى العكس من ذلك فإن صفاتهم عالية سواء من الناحية الثقافية أو التكنولوجية » أو فيما يتعلق بالمهارة والروح القتالية . وفضلا عن ذلك فإن خطوطنا العسكرية قد أصبحت ملائمة لنا تماماً . وقد أعدت جيداً للدفاع والرقابة الإليكترونية . لهذه الأسباب أقول إن الحرب مستحيلة الوقوع

الصورة الحادية عشرة : على مصر أن تستعير طيارين ألماناً :

بعد حرب يونية ١٩٦٧ . . أجرت صحيفة ألمانية غربية مع الجنرال موشيه ديان حديثاً طويلا . . كان فيه ديان – كعادته – فى مئات الأحاديث التى ظل يدلى بها منذ كانت تلك الحرب – يتحدث فى ثقة بغير حدود .. وقد سأله الصحفى الألمانى فى ذلك اليوم

من عام ١٩٦٨ عما **إذا كان الجيش المصرى يستطيع هزيمة إسرائيل فى أية حرب قادمة ؟** .

فارتسمت ابتسامة عريضة على وجه ديان وقال باقتناع كامل :

« ليس لدى المصريين أدنى فرصة . . **إنهم فقط يستطيعون أن يحاربوا أفضل إذا ما حصلوا على طيارين ألمان ! ! ! »** .

الصورة الثانية عشرة : استعراض القوة فى آخر ذكريات النصر ! !

الزمان : ١٥ مايو ١٩٧٣ .

المناسبة : احتفال إسرائيل بذكرى قيامها وذكرى انتصارها فى حرب يونية من عام ١٩٦٧ .

المنظر العام : أعضاء الكنيسيت والحكومة والجنرالات وجماهير الشعب الإسرائيلى يصطفون فى زهو ونشوة لمشاهدة العرض العسكرى لجيش الدفاع الإسرائيلى الذى لا يقهر .

يبدأ العرض الكبير . . فتظهر طائرات الفانتوم القاذفة المقاتلة ، وتظهر طائرات السكاى هوك لتحلق هى الأخرى فى السماء وقد قاد إحداها الجنرال مورد خاى هود قبل تقاعده ثم تتوالى فى ساحة العرض المدرعات التى تحمل شعار « الفخر للمدرعات » ، ثم منصات الصواريخ وطوابير المشاة الميكانيكية فى عرض أنفق عليه أكثر من تسعة ملايين من الدولارات ، وتم إخراجه بطريقة معينة لتتناقله وكالات الأنباء العالمية ، وكاميرات التليفزيون والسينما ، بحيث يعطى انطباعاً محدداً عن عظمة « جيش إسرائيل القوى » والدولة الفتية القوية التى قامت وسط صحراء التخلف العربى

* * *

* تلك كانت أمثلة محدودة جداً . . من عشرات ومئات الصور والمواقف والتصريحات التى عزفتها الفرقة السيمفونية للدعاية الإسرائيلية – منذ عام ١٩٦٧ ، وبعد ذلك الانتصار الذى حققه جيش الدفاع – فى ظروف غير طبيعية – على القوات العربية – عشرات ومئات الصور التى تقول بمنتهى الوضوح والثقة : إن إسرائيل بجيشها الذى لا يقهر ، وجبهتها الداخلية القوية . واقتصادها المزدهر لم تعد أقل من أى دولة كبرى ! !

ولكن حيث إن هذه « الصفة الضخمة » أكبر من أن أدلل عليها باثنتى عشرة صورة فقط ، فإننى أتوقف الآن أمام أمثلة محدودة جداً **لما قاله الآخرون عنها** حتى يتضح الجانب الثانى من جوانب الصورة – **وكما يراه العالم نفسه** .

لغة الجيش الذى لا يقهر :

فى أعقاب يونية ١٩٦٧ أرسل رئيس تحرير مجلة دير شبيجل الألمانية الغربية خطاباً إلى السيدة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل قال فيه بكل الانبهار :

« إننى يا سيدتى أشعر بالأسف الشديد لأننى أصدرت ملحق المجلة الخاص بالانتصار الإسرائيلى باللغة الألمانية .

إننى سأفرض على المحررين فى دور الصحف التى أملكها أن يتعلموا العبرية . . لغة جيش الدفاع الذى لا يقهر ! ! » .

ميدالية ديان :

فى ذلك العام أيضاً . . وبكل الحماس الهستيرى أصدر وزير المالية الهولندى أمراً إلى دار سك النقود ، بأن تبادر على الفور بسك ميداليات ذهبية وفضية وبرونزية تكون صورة موشى ديان (بالرباط على عينه اليسرى) فوق وجهها الأول ، وتكون النجمة السداسية . . نجمة صهيون وجهها الثانى ! !

ولقد صدرت هذه الميداليات بالفعل ، وسرعان ما تحولت إلى « موضة » انتقلت من هولندا إلى أوربا الغربية . .

تعلموا . . من جيش الدفاع . . أيها السادة !

فى آخر سلسلة من التحقيقات والريبورتاجات التى نشرت فى صحيفة الديلى تليجراف عن جيش إسرائيل الأسطورى – قال المحرر العسكرى : « إن حرب الأيام الستة . . يجب أن تكون البوصلة الهادية لكل العسكريين الغربيين وغير الغربيين . . وكل المسئولين فى الأكاديميات العسكرية فى العالم .

. . وإن صورة موشى ديان يجب أن توضع جنباً إلى جنب مع صور الأبطال العسكريين عبر التاريخ » .

لن تقع أية حرب !

فى سبتمبر من عام ١٩٧٣ قال الخبير العالمى « هولبروك » فى مجلة السياسة الخارجية الأمريكية التى يعمل أيضاً رئيساً لتحريرها :

« إن إسرائيل لم يسبق لها طوال تاريخها المضطرب أن كانت آمنة بمثل هذا القدر ، ولا متفوقة من وجهة النظر العسكرية بمثل هذا التفوق – وبعد انقضاء ست سنوات على حرب الأيام الستة ، فإن نشوب حرب صريحة بين إسرائيل وجيرانها العرب يبدو أقل احتمالا مما كانت عليه فى أى وقت من الأوقات » .

* **ملحوظة قصيرة جداً** : (اندلعت شرارة الحرب . . وتعرضت إسرائيل للطوفان العربى ، بعد أقل من شهر من نشر مقال الخبير الأمريكى الكبير هولبروك) .

أفضل طيارين فى العالم :

فى شهر أغسطس ١٩٧٣ (قبل دراسة رئيس تحرير السياسة الخارجية الأمريكية بشهر . . وقبل اندلاع شرارة الحرب بأقل من شهرين) صدر التحليل الأخير للميزان العسكرى عام ١٩٧٣ – ١٩٧٤ **عن المعهد الدولى للدراسات الإستراتيجية بلندن** .وقد جاء فى هذا التحليل أن التفوق الجوى الإسرائيلى قد تدعم بدرجة كبيرة . . حيث وصل مجموع ما لدى إسرائيل الآن ٤٨٨ مقاتلة قاذفة يتفوق أغلبها على طائرات الميج ، وإنه من دواعى فخر إسرائيل أن لديها **أفضل الطيارين فى العالم** ! !

العلم الإسرائيلى فوق السد العالى :

فى روايته « مياه أسوان » تصور الكاتب الألمانى « ميكائيل حايم » أن إسرائيل قادرة على الوصول إلى السد العالى بفضل جنودها الجدد من العلماء . فتخيل أن المصريين يستيقظون ذات يوم ليجدوا علم إسرائيل فوق السد العالى ، فقد وصلت إسرائيل إلى هذا المكان أيضاً ، وأصبحت أعلامها تنتشر فوق عوامات من المطاط تقف أمامه ، ثم بدأ قادة إسرائيل يعقدون المؤتمرات الصحفية التى يقولون فيها إن مصر فى جيوبهم ، وإنهم سوف ينسفون السد العالى فتغرق مصر بمن فيها من المصريين . وبالفعل – كما تخيل الكاتب – زحفت مياه بحيرة ناصر إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتهدم الهرم الأكبر ، وغرقت الأشجار

والبيوت وطفت جثث المصريين على سطح مياه الفيضان . وعند ما يتم اكتشاف المادة التى ألقاها العالم اليهودى وأدت إلى هذا الفيضان ، يكون الدمار قد عم كل أرجاء الدلتا ووادى النيل ، وأصبحت مصر – بلا مصريين – لقمة سائغة فى يد إسرائيل المنتصرة التى تستطيع الآن أن تحقق أحلامها فى بناء الدولة التى **تمتد من النيل إلى الفرات** .

لا أمل . . لا حل . . أو هى القنبلة الذرية ! !

فى أبريل ١٩٧٣ وصل كبير الخبراء السوفييت الجنرال « لاشنكوف » إلى مصر لدراسة مطالبها من بعض الأسلحة ، وكان برنامج زيارته يتضمن جولة فى المواقع التى اتخذتها القوات المصرية غرب القناة ، وحينما وصل الجنرال الكبير إلى الإسماعيلية ، استقبله اللواء سعد مأمون قائد الجيش المصرى الثانى . ودار بينهما هذا الحوار البالغ الأهمية :

– الجنرال لاشنكوف : كيف ترى الكفاءة القتالية لقواتك !

– اللواء سعد مأمون : ممتازة . . ممتازة للغاية .

– الجنرال لاشنكوف : وما تقديرك للكفاءة الفنية لأسلحتكم ؟

– اللواء سعد مأمون : مائة فى المائة .

* * حينئذ نظر الجنرال السوفييتى إلى المصاطب الترابية المرتفعة – التى أنشئت على الضفة الغربية بعد خروج الخبراء السوفييت – وسأل عن الهدف من إقامتها ، وشرح له سعد مأمـون فكرتها بصفة عامة دون أن يتناول التفاصيل ثم وجه الجنرال لاشنكوف بصره إلى الضفة الشرقية حيث ترتفع السواتر الترابية للعدو . . وسأل قائد الجيش الثانى :

– ما تصورك ؟ كيف يمكن أن تعبر قواتك مع وجود هذا الساتر المرتفع إلى ٢٠ متراً ؟

* *ولسبب ما لم يشر اللواء سعد مأمون إلى الابتكار المصرى المتمثل فى استخدام مدافع المياه (التى أثبتت نجاحها المذهل بعد ذلك وحين بدأت الحرب) – لكنه قال له : « سنفجر هذا الساتر بالديناميت وسوف تعبر دباباتنا فى ثلاث ساعات .

فقال الجنرال السوفييتى الكبير :

« إنكم تفكرون فى الحرب بأساليب عام ١٩١٤ قبل أن تخترع الدبابات . .

هل تتصور يا جنرال أن المقاتل الفرد فى الحرب الحديثة يستطيع أن يتصدى لدبابة ؟ إن دبابات إسرائيل أمامكم . . فكيف يمكن مقاومتها بغير الدبابات ؟

وتساءل اللواء سعد مأمون – بمنتهى الخبث :

– وماذا نستطيع أن نفعل ؟ هل لديكم فى الاتحاد السوفييتى شىء نقاوم به هذه السواتر الترابية الشاهقة ؟ لقد وصلتم إلى القمر . . ولا بد أن لديكم شيئاً جديداً يمكن أن يفيدنا ؟

– فرد الجنرال لاشنكوف قائلا : آسف . . آسف جداً . . إننا لم نواجه مثل هذه الموانع من قبل ! ! » .

* * هكذا كان تصور الجنرال السوفييتى الكبير لاستحالة أى تحرك عسكرى من قبل مصر . . وقد وصل جنرال سوفييتى آخر إلى الحد نفسه من اليأس حين قال للمشير أحمد إسماعيل على قبل الحرب بشهور – وهو يشير أيضاً إلى الساتر الترابى : « إنكم تحتاجون إلى قنبلة ذرية . . لكى تتغلبوا على هذه المشكلة ! ! » . .

كيف كان ينظر العرب إلى إسرائيل . . وإلى أنفسهم ؟ .

* لن أستطرد كثيراً فى هذا الجانب من جوانب الصورة التى تتبدى فيها إسرائيل عظيمة وكبيرة وأسطورية القوة (مقارنة بالعرب . . أو بغيرهم . .)

لن أستطرد كثيراً . . لأن أقل القليل مما كان يقوله أو يفعله العرب . . يضيف بشكل مكثف ومركز لهذه الصورة . وبالتالى فإننى أكتفى بهذه الجزئيات .

تمزيق الماضى والحاضر والمستقبل :

كانت النغمة السائدة فى العالم العربى هى التهويل من قوة إسرائيل . والتهوين من القوة العربية ، حتى إن بعض الشعراء العرب انهالوا بحناجر اليأس على الحاضر والمستقبل العربى . . بل إن الماضى العربى نفسه – وبرغم عراقته – لم يسلم من التمزيق والتشويه .

مطلوب عشر سنوات :

لم يجد بعض القادة العرب أى حرج فى التصريح بما يعتقدونه ، فعلى سبيل المثال قال وزير الدفاع اللبنانى نصرى معروف فى ٢٢ أغسطس من عام ١٩٧٣ (إننا نحن العرب نحتاج إلى عشر سنوات على الأقل لكى نصل إلى مستوى قوة إسرائيل .)

هل تتحول المدافع إلى مواسير مياه :

تزايدت الشكاوى من الضعف والخلل فى أمور الحياة اليومية ، حتى إن أكثر من كاتب مصرى أخذ يصرخ – حين تكرر انقطاع المياه وتلوثها فى القاهرة – بكلمات يهزها اليأس ، فقال أحدهم : « إذا كنا بالأمس قد غرقنا فى شبر ميه حينما زاد المطر عن حده ، وإذا كنا اليوم نفشل فى حل مشكلة المياه . . فكيف نتصور أننا نستطيع أن نخوض حرباً مع إسرائيل ؟ . . ويبدو أن جنرالاً إسرائيلياً قرأ هذه الكلمات الشاكية البائسة ، فتطوع باقتراح حل سريع . بقوله « لماذا لا يحول العرب مدافعهم إلى مواسير مياه ؟ . » .

وانهمكوا فى اختيار أجمل كلب :

وصل الهبوط باهتمامات الإنسان العربى – اللهم إلا من تماسك واحتفظ بالأمل قوياً فى صدره – وصل ذلك الهبوط إلى الحد الذى نظمت فيه مسابقة كبيرة فى بيروت لاختيار « أجمل كلب ! ! » .

الألم . . واليأس :

تكررت الضربات الإسرائيلية استعراضاً لقوة جيش الدفاع الذى لا يقهر . . فأسقطت طائرة الركاب الليبية بمن فيها من مدنيين راحوا ضحية الجريمة . وتكررت غارات الكوماندوز الإسرائيليين على بيروت وكان أبرزها وأكثرها تحدياً للمشاعر العربية والعالمية قتل عدد من زعماء المقاومة الفلسطينية داخل بيوتهم !

ثم كان ذلك الاشتباك الجوى الذى حدث فى ١٣ سبتمبر ١٩٧٣ فوق ميناء طرطوس السورى . . والذى انتهى بإسقاط ١٣ طائرة سورية مقابل طائرة واحدة إسرائيلية . . واتسعت الابتسامات فوق وجوه الإسرائيليين الذين عبر عنهم معلقهم العسكرى حايم هيرتسوج بقوله : « هكذا . . سيعرف العرب كيف يحترمون وقف إطلاق النار ؟ ! » . . أما فى الجانب العربى . . فقد انطوى الكثيرون على الإحساس بالمرارة واليأس ! !

* * *

فجأة . . إسرائيل : دولة صغرى ! !

. . تلك كانت صورة إسرائيل (الكبرى) كما رسخت تماماً فى أذهان الإسرائيليين أنفسهم ، والعالم كله ! ! . فهـل كان هناك من يتوقع أن تندلع الحرب فى الشرق الأوسط ؟ ؟ هل يبلغ الجنون بالعرب إلى حد التفكير فى شن حرب يواجهون فيها مرة أخرى الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر ؟؟

المؤكد أن أكثر المتفائلين جنوحاً فى الخيال لم يتوقعوا ذلك . وخاصة أن القيادة المصرية رسمت لنفسها – عمداً – فى أذهان الجميع صورة أقل ما توصف به : الضعف والتردد والاستسلام والانهزامية !

ولكن ما لم يكن متوقعاً . . حدث بالفعل . . وأصبح واقعاً مثيراً ، فلم تكد عقارب الساعة تصل إلى الثانية وخمس دقائق من ظهر السبت السادس من أكتوبر من عام ١٩٧٣ ، حتى كانت موجات العبور المصرية تتدفق شرقاً إلى سيناء متحدية أعتى الموانع وأقوى الحصون ، واندفعت موجات المغاوير السوريين لتجتاح المواقع الإسرائيلية فوق الجولان !

وبطبيعة الحال لم يحدث ذلك من باب الصدفة أو الفوران المفاجىء ، بل كان نتيجة منطقية لمقدمات وإعداد وتخطيط فاق كل التوقعات .

* وقبل أن أدخل فى تفاصيل « الطوفان » الذى فجره العرب فى هذا اليوم ليكشف الحجم الحقيقى لإسرائيل ، فإننى أجدنى مضطرًّا إلى وقفة سريعة أمام ردود الفعل الأولى من الجانب الإسرائيلى . . أعنى التصريحات والتهديدات التى تدافع بعضها وراء بعض فى إيقاع صاخب عصبى طوال الساعات الثمانى والأربعين الأولى من الحرب أو الطوفان . أتوقف أمام هذه التصريحات الواثقة أحياناً والعصبية كثيرة لأنها لم تكن سوى « الرتوش » الأخيرة فى صورة إسرائيل « الكبرى » قبل أن تتهاوى وتتقلص !

جيش الدفاع سيحل أزمة المساكن والمواصلات فى مصر ! !

* قالت جولدا مائير – بمجرد اندلاع الحرب :

« لقد كانت المخابرات الإسرائيلية تعلم منذ بضعة أيام أن الجيوش السورية والمصرية حشدت للقيام بالهجوم فى وقت واحد ، وقد اتخذت قواتنا الاستعدادات العسكرية

اللازمة لمواجهة الخطر . (ونحن لا نشك أبداً فى أننا سننتصر) »

* بعد هذا التصريح الواثق جداً . . المطمئن جداً . . وفى اليوم الثانى من أيام الحرب الطوفانية . . اتصل وزير الخارجية الأمريكى بالسيدة جولدا مائير . . وسألها عن الموقف . . فى جبهات القتال . . فقالت له . . بنفس الثقة . ونفس الغرور : « أعطنى – يا عزيزى كيسنجر – أربعاً وعشرين ساعة أخرى لكى يتمكن جيش الدفاع الإسرائيلى من حل أزمة المساكن والمواصلات فى مصر ، وذلك بإلقاء جيشها كله فى قناة السويس ! !

سنضربهم ضرباً مبرحاً . . سنسحق « كليتهم » :

استمع الإسرائيليون فى ساعات الحرب الأولى . . إلى التصريح الثانى – وقد جاء هذه المرة على لسان معشوقهم الأول وجنرالهم المدلل موشيه ديان الذى نقل الأثير العبرى كلماته الحادة الواثقة التى تقول :

« إننا سوف نلحق بالعرب هزيمة مجلجلة ! إننا سوف نضربهم ضرباً مبرحاً . . ولسوف نسحق « كليتهم » .

إن تحقيق النصر على هؤلاء العرب لا يحتاج منا إلى شهور أو أسابيع أو حتى أيام . . إنها مسألة ساعات فقط » .

مؤتمر « سحق العظام » :

بعد ذلك تقدم دافيد اليعازر رئيس الأركان ليأخذ دوره فى طابور قادة إسرائيل الواثقين المطمئنين المهددين للعرب بالويل والثبور . وعظائم الأمور !

وفى مؤتمر صحفى عقد فى قاعة بيت سوكولوف للمؤتمرات – وهى المركز الصحفى لجيش الدفاع الإسرائيلى – قدم اليعازر عرضاً إجماليا لنتائج الـ ٤٨ ساعة الأولى من الحرب ، ثم بدأ وقد تقلص فكه وبرقت عيناه فى نوبة غضب جامح فى توجيه تهديداته . . فقال بالحرف الواحد :

« إننا سوف نطارد المصريين والسوريين فى كل مكان . سنلاحقهم وسنسحق عظامهم » .

نهاركم – أيها العرب – أسود !

كانت التهديدات الواثقة التى تؤكد أنها تصدر عن دولة كبرى قادرة . . لها ذراعها الطويلة المستعدة « لتأديب العرب فى كل مكان وكل زمان » كانت هذه التهديدات تتوالى بغير انقطاع سواء من خلال القادة والجنرالات . . أو من خلال إذاعتهم الرسمية . .

وفى مساء اليوم الأول للحرب هدد راديو إسرائيل العرب بقوله : « إننا سنحول نهاركم إلى ليل . سنجعلكم ترون النجوم فى وضح النهار ، وسنمرغ وجوهكم وأنوفكم فى الوحل .. إن زعماءكم « السادات والأسد وغيرهما » سوف يدفعون الثمن غالياً .

بأنفسهم . . سعى العرب . . إلى مصيرهم :

استخدمت إسرائيل فى تنفيذ التعبئة كل وسائل المواصلات العسكرية والمدنية . . وازدحمت الأتوبيسات بجنود الاحتياط الذين تم استدعاؤهم وكانت الكلمات التى تتردد بين هؤلاء الجنود . . كما سجلها « جان كلود جيبوه » فى كتابه « الأيام المؤلمة فى إسرائيل » – كانت هذه الكلمات تعبر عن الثقة الهائلة فى أنفسهم وفى دولتهم القوية القادرة .

فكانوا يقولون :

* إن العرب قد سعوا إليها بأنفسهم »
* إن هذه الحرب ستكون نزهة أفضل من حرب ١٩٦٧ »
* ويضيف (جان كلود جيبوه) إلى هذه الصورة التى تترجمها كلمات الجنود الإسرائيليين (الذين لا يقهرون) . . ما قاله واحد من هؤلاء الجنود – يدعى هنرى – لزوجته وهو يعانقها مودعاً :

« إننى سوف أعود يوم سوكوس (أى يوم الخميس القادم) ، إذ أن ستة أيام تكفى للإطاحة بالسوريين والمصريين ! ! »

* ويعلق المؤلف الفرنسى على هذه الكلمات بقوله « إنها كانت الكلمات نفسها تقريباً التى تبادلها الجنود الإسرائيليون مع زوجاتهم وصديقاتهم . . قبل أن يتجهوا إلى جبهات القتال » .

حزنت عليكم !

بعد وقف إطلاق النار . . وحضور وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر إلى القاهرة قال للرئيس السادات : « عندما اندلعت الحرب أيقظنى آبا إيبان من نومى ليبلغنى بأن مصر وسوريا هاجمتا إسرائيل . وأقول لك الحق . . إننى حزنت وقتها عليك ، وقلت : بعد ساعتين أو ثلاثة سيدمر الإسرائيليون الجيش المصرى . وإسرائيل إذا انتصرت لثانى مرة فلن يستطيع أحد أن يتحدث معها ! ! »

السادات يصرخ « أنقذونى » ! !

فى صباح يوم (٧ – أكتوبر ٧٣) وبينما أجهزة الإعلام الإسرائيلى تواصل – لليوم التالى – الحديث عن هجمات الجيش الإسرائيلى المضادة التى « تهزم » العدو « وتسحقه » ! نشرت صحيفة معاريف كاريكاتير بريشة الرسام كارئيل جردوش (دوش) ، انتشر بسرعة خاطفة بين الإسرائيليين الذين أخذوا يتفرجون عليه . . ثم ينفجرون فى الضحك . . كان رسام الكاريكاتير (دوش) قد رسم شعب إسرائيل فى صورة « يسرائيل » الذى يضع على رأسه قبعة « تنبل » وفى يده بندقية منتصباً أمام أنور السادات رئيس مصر الواقف على الجانب الآخر من القناة رافعاً يديه وهو يصرخ « أنقذونى » ! ! !

* * *

* **هكذا** لم تتخل إسرائيل عن الإحساس بأنها دولة كبرى . . لديها جيش لا يقهر . . بينما على الجانب الآخر شعوب عربية مفككة غير متمدينة . . تعانى من الضعف والتخلف والجبن . . »

* **هكذا** شهدت الساعات الثمانى والأربعين الأولى من الحرب . . الحلقة الأخيرة فى سلسلة التصريحات والتهديدات التى انطلقت بها شفاه قادة وجنرالات ومذيعى وكتاب إسرائيل . والمؤكد أنها فعلا كانت الحلقة الأخيرة فى مسرحية « إسرائيل الكبيرة » . كانت اللحن الأخير فى معزوفة القوة الأسطورية للدولة الإسرائيلية . .

* هى الحلقة الأخيرة . . واللحن الأخير . . لأن طوفان أكتوبر اجتاح أمامه كل ألوان الدعاية الصهيونية . . ومزقت موجاته الجارفة أوراق « مسرحية إسرائيل الكبرى » وأسكتت تماماً جوقة العازفين فى أوركسترا الإعلام الصهيونى عن جيشهم الذى لا يقهر . . ودولتهم التى لا تهزم !

• عفواً . . . لقد تخليت – لحظة – عن منهجى . . ووجدتنى أعلق بصوت مسموع على انهيار الأسطورة الإسرائيلية . تحت طوفان أكتوبر ويشفع لى . . أن الصفحات التالية . . وحتى نهاية هذه الدراسة سوف تتضمن هذا المعنى نفسه . . وربما هذه الكلمات نفسها على لسان إسرائيليين وخبراء عسكريين وسياسيين عالميين . – يشفع لى ذلك بالتأكيد – كما أن لدى عذراً شخصياً آخر . وهو أننى كشاب عربى عاش نكسة ٦٧ ضابطاً احتياطياً بالقوات المسلحة . . ثم كأديب وإذاعى شعرت بحدة وقوة ما عاناه كل عربى من إحساس بالذل والمهانة كانت تغذيه دائماً الأقوال والأفعال الإسرائيلية منذ انتهت تلك الحرب . . وعلى مدى السنوات الكابوسية التى امتدت بعدها . . ولم تنته إلا باندلاع حرب أكتوبر ١٩٧٣ . .

هذا هو عذرى الذى أرجو أن أفسر به تدخلى المباشر أو تعليقى بصوت مسموع على آخر فصول الدعاية لإسرائيل الكبرى . .

وكيف بدأت تواجه الواقع الذى كشفها وعراها تماماً .

• **والآن** – وكما ألمحت فى بداية هذا الفصل – نصل إلى الصورة الأخرى لإسرائيل.. **صورة إسرائيل الصغرى** كما كشفت الستار عنها حرب أكتوبر . حرب أكتوبر التى قوضت كل أركان الدعاية والنظريات والمسلمات التى جعلت من إسرائيل – على مدى ست سنوات وبضعة شهور – دولة كبرى . . تقف وحدها فى الشرق الأوسط قادرة على فرض إرادتها . . واثقة فى حاضرها ومستقبلها

والحقيقة أنه يكفى تماماً أن أعود بك -- أيها القارئ العزيز – إلى الصفحات الأولى التى أجبت فيها على سؤال « لماذا الطوفان » فهذه الصفحات تتضمن تصريحات القادة الإسرائيليين عن نتائج الحرب . . وكيف ترنح الغرور.. مع سقوط جيش الدفاع . . أقول تكفى تلك الصفحات . . لكى تبدو المقارنة بين ما قالوه بعد يونية ٦٧ . وما قالوه بعد أكتوبر ٧٣ شاهداً حياً على الآثار الخطيرة التى أحدثتها حرب أكتوبر . . وكانت بمثابة الطوفان الذى كادت تغرق إسرائيل فى مياهه ودمائه ورصاصه . .

ومع ذلك فإننى حرصاً منى على تعميق ملامح الصورتين (ما قبل أكتوبر . . وما بعده) وحتى تكون الفجوة الهائلة بين هاتين الصورتين . . إجابة أخرى أدق وأشمل على من يتساءل عن آثار حرب أكتوبر على إسرائيل وكيف نسميها طوفاناً أو زلزالاً . . من أجل

ذلك . . أضيف – الآن – بعض التصريحات والمواقف الإسرائيلية بعد تبلور نتائج عمليات الحرب – وما يعنينى هنا هو تبيان الحجم الكلى والعام لما جرى لإسرائيل من خلال المقارنة البحتة ، ثم ندخل بعد ذلك فى تفاصيل التفاصيل . . من خلال مراحل الطوفان المتتالية .

* * *

نهاية دولة إسرائيل الكبرى :

فى مجلة « لانوفيل أوبزرفاتور » الفرنسية كتب فيكتور سيجلمان (وهو كاتب إسرائيلى مقالاً تحليلياً بعنوان « نهاية دولة إسرائيل الكبرى » قال فيها : لقد اختفت تماماً أغانى الانتصار التى كانت ترددها إذاعة إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ عن (شرم الشيخ) و (القدس الذهبية) . لقد حلت محلها اليوم (بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣) أغنية تلاحق الإسرائيليين ليل نهار من الإذاعة والتليفزيون . وتقول كلمات هذه الأغنية :

« باسم الجنود الذين احترقوا فى دباباتهم . .

باسم الطيارين الذين هبطوا والنيران مشتعلة فى أجسادهم . .

باسم . . وباسم . . وباسم

أعدك ياصغيرتى العزيزة أن هذه الحرب ستكون الأخيرة . . نعم الأخيرة . . الأخيرة . . الأخيرة ! ! »

ويعلق الكاتب على ذلك بقوله : (كانت أغانى ٦٧ تعبر عن فرحة الحياة ، ولذة النصر ، أما اليوم – بعد حرب أكتوبر – فقد خارت قوى « الأبطال » ولم يسبق فى تاريخ إسرائيل القصير أن شعر الإسرائيليون بمثل هذه الشدة والحدة بالتعطش إلى السلام والهدوء وزوال التوتر . إن الشاغل الرئيسى لرجل الشارع الإسرائيلى يتركز الآن فى الانتهاء من هذه الأمور بسرعة ، وفى إعادة الجنود المرابطين على الجبهة ، ووضع حد لقائمة القتلى والمفقودين والجرحى ، لكى يتسنى له أن يلتقط أنفاسه التى كادت تتوقف . وعند ما يقول الجنرال ديان « لسوف نصبح عما قريب ، أقوى بكثير مما كنا قبل الحرب » حينما يقول هذا يغضب الإسرائيليون أو يبتسمون باستخفاف . . لقد فقدوا الثقة فى وزرائهم وأصبحوا يشكون فى جنرالاتهم السياسيين الذين أخذوا – من جانبهم – يتبادلون الاتهامات ! ! وهذا أحد الأدلة على أن صورة إسرائيل « كدولة كبرى تقف راسخة ومستحكمة للغاية » . . هذه الصورة اختفت مع حرب أكتوبر ، وبدون أن تخلف أية آثار .

لم أستطع أن أبكى ! !

إنهـا بالنسبة لهم فى إسرائيل كانت فى موقع أمهم العجوز ، وواحدة من بقايا جيل الرواد الكبار . . فإنهم اكتفوا بأن قالوا لها (. . معذرة . . لابقاء لك بعد ما فعله الطوفان بنا) . وانطوت هى على نفسها تجتر آلام الهزيمة . . وضياع الأحلام وأسرعت إلى أوراقها تدفن عزلتها فيها . . لتقدم قصة حياتها فى كتاب نشر أخيراً . . وبعد عامين من طوفان أكتوبر .

وقد تساقطت اعترافات جولدا مائير . . الحزينة اليائسة . . فقالت بالحرف الواحد :

لا شيء أقسى على نفسى من كتابة ما حدث فى أكتوبر ١٩٧٣ ، فلم يكن حدثاً عسكريًا رهيباً فقط ، وإنما كان مأساة عاشت وسوف تعيش معى حتى الموت . . لقد وجدت نفسها فجأة أمام أعظم مسئولية عاجـــزة عن اتخاذ قرار أمام أعظم تهديد واجهته إسرائيل منذ إنشائها .

« إن صدمتنا لم تتمثل فقط فى الطريقة التى حاربونا بها ولكن لأن عدداً من المعتقدات الأساسية التى آمنا بها قد انهارت أمامنا » ، « فقد آمنا باستحالة وقوع حرب فى شهر أكتوبر ، وآمنا بأننا سوف نتلقى إنذاراً مبكراً لكل تحركاتهم قبل نشوب الحرب . وآمنا بقدرتنا التامة على منع المصريين من عبور قناة السويس » . . وقد انهار ذلك كله فجأة . إن ما حدث شيء لا يمكن وصفه . ويكفى أن أقول إننى **لم أستطع أن أبكى** وكنت أمضى معظم الوقت فى مكتبى ، وأحياناً أذهب إلى غرفة العمليات وكانت هناك اجتماعات متواصلة ، وتليفونات من أمريكا . . وأخبار مروعة من الجبهة بينما كانت خسائرنا تمزق قلبى . . ! ! »

بطل إسرائيل . . ينهار :

فى اليوم الرابع للقتال (٩ أكتوبر١٩٧٣) قابل الجنرال موشيه ديان (بطل إسرائيل) محررى الصحف اليومية وقال لهم بلهجة مأساوية وروح معنوية محطمة : لن أخفى عليكم إن قواتنا فى الجولان وفى قناة السويس فى حالة ذعر تام . ولم يعد لخط بارليف وجود . كما أن أجهزة إشعال مياه القناة صارت خرافة . وأصارحكم بأننى لا أتمنى أن أكون فى هذه اللحظات فى موقف رجال مدرعاتنا . . أما سلاحنا الجوى فقد تم تحييده وقد بلغت خسائرنا فيه – فى اليوم الأول فقط – ستين طائرة منها ٣٦ طائرة فانتوم .

هذا ما قاله ديان – منهاراً – فى اليوم الرابع – وقد أخفت الرقابة الإسرائيلية الكثير مما اعترف به – ومن جهة أخرى فإنه فى ثانى أيام القتال (يوم الأحد ٧/١٠/٧٣) عاد من الجبهة ليلتقى برئيسة الوزراء جولدا مائير وقال لها . . إن الموقف فى الجنوب سيئ جداً . وإنه لا بد من اتخاذ موقف الدفاع وأن تنسحب القوات الإسرائيلية إلى خط دفاعى جديد – قال ديان هذه الكلمات اليائسة لجولدا مائير – وقبل أن يغادر مكتبها ، عاد وأغلق الباب عليهما . . ثم قال لها : « هل تريدين منى أن أستقيل . . إننى على استعداد لأن أفعل ذلك فوراً » .

والمعروف – كما قالت مائير نفسها – أنها آثرت أن تبقى عليه حتى لا يحدث مزيد من الانهيار بين القوات . وقد أعطت معظم صلاحياته لحايم بارليف وغيره من الجنرالات الذين أعيدوا إلى الخدمة العسكرية . . لعلهم يفعلون شيئاً ! ! – كما أنها فى الوقت نفسه سارعت إلى الاتصال بأمريكا . . طالبة النجدة ! – ومن جهة أخرى تعرض ديان لأقسى ألوان النقد والتجريح حتى إن مدير استخباراتهم السابق ومعلقهم العسكرى حايم هيرتسوج قال موجهاً اتهامات قاسية للغاية لكفاءة موشيه ديان « إن بعض نصائح الجنرال ديان أثناء حرب أكتوبر كادت تقود إسرائيل إلى كارثة » .

وإذا كانت صورة إسرائيل الكبرى قد تقلصت وعادت إلى حجمها الطبيعى فإن ذلك بطبيعة الحال جاء نتيجة لتقلصات وانهيارات فى العمد والأسس التى قامت عليها تلك الصورة السابقة . . ومما لا شك فيه أن ديان وعدداً من الجنرالات كانوا أحد تلك العمد والأسس . . بل إنهم كانوا فى الوقت نفسه أحد مظاهر القوة الأسطورية لإسرائيل . ولعل نظرة أخرى على ما جاء فى الصفحات الأولى من فصل « إسرائيل دولة كبرى » توضح هذه الحقيقة بشكل قاطع .

ومن ثم فإن انهيار ديان ورفاقه كان انهياراً لجانب من جوانب « إسرائيل الكبرى » ولعل ما يضيف إلى هذا المعنى ما قاله المؤلفون الإسرائيليون السبعة لكتاب التقصير . . حين وصفوا زياراته لجبهات القتال – فقالوا « كان ديان – لأول مرة – يبحث عن شىء يستمد منه الإلهام والتشجيع . إنه لم يكن قائد الأيام الخالية الشهير الذى كان قدومه إلى الجبهة يشيع حوله جواً من الشجاعة والكبرياء والثقة بالنفس . لقد عاد ديان فى حرب أكتوبر إلى صورة الإنسان الفانى العادى ، واصطدم الرجل الذى كانت له شعبية جارفة فى الشرق الأوسط كله – اصطدم (بعد الحرب) بالظاهرة المذهلة المتمثلة فى فقدانه لمكانته .

« **لقد تبخرت الأسطورة** » . وبعد أن كانت استفتاءات الرأى العام تقول مثلا فى عام ١٩٧٠ إن ديان هو القائد الأكثر شعبية فى نظر ٩١ ٪ من سكان إسرائيل . . هبطت هذه النسبة فى نهاية عام ١٩٧٣ إلى ٢ ٪ فقط ! !

إسرائيل . . دولة صغيرة أكثر من اللازم :

جولدا مائير . . – وقد التزمت الصمت إلى حد كبير بعد حرب أكتوبر – خرجت عن صمتها حين دعيت إلى إلقاء محاضرة بتل أبيب فقالت :

« إن إسرائيل دولة صغيرة أكثر من اللازم ، والشعب الذى يعيش فى إسرائيل صغير جدًا . إننى أرى أن خطوات السلام التى تفرضها نتائج الحرب تفرض على كيان إسرائيل وشعبها عبئاً ثقيلا »

ملحوظة : جاء هذا الاعتراف من جولدا مائير . . فى الوقت الذى كانت تستعد فيه لإصدار كتابها « قصة حياتى » وهو الكتاب الذى استشهدت ببعض ما جاء فيه . . فى بداية هذا الفصل .

وظهر حجمها الصغير – أيضاً – فى مدارسهم :

فى ١٩٧٣/١٢/١٢ أعلنت وكالة الأنباء الفرنسية أن وزارة التعليم الإسرائيلية قامت بتوزيع كتيب صغير « دعت فيه المدرسين إلى تهيئة طلبتهم معنويًا لتقبل حقيقة أن دولة إسرائيل أصغر بكثير من تلك التى اعتادوها » . والغريب أن بعض قادة إسرائيل قد عبروا عن غضبهم من هذا الكتيب الخطير ، وصرحوا لصحيفة جيروزاليم بوست بأن الأمر يبدو وكأن وزارة التعليم الإسرائيلية قد قررت – بمفردها – الانسحاب من جانب واحد .

وقد علقت وكالة الأنباء الفرنسية على هذا الكتيب قائلة : لو أن وزارة التعليم الإسرائيلية قد نشرت ووزعت هذا الكتيب منذ عام ٤٨ لتهيئة طلبة إسرائيل معنويًا وتنشئتهم على أن إسرائيل ما هى إلا دولة صغيرة وسط محيط من دول مسالمة ذات حضارات عريقة وأنها إذا أرادت الاستقرار والأمن فلابد من احترام أمن وحدود جاراتها – لو أن وزارة التعليم فعلت ذلك منذ هذا التاريخ لما كانت كل هذه الحروب التى فقدت فيها إسرائيل الآلاف والآلاف من شبابها .

هذا هو تعليق الوكالة الفرنسية على كتيب وزارة التعليم الإسرائيلية الذى عبر خير

تعبير عن الواقع الذى خلقه أو كشفه طوفان أكتوبر . أما غضب أولئك القادة الإسرائيليين من هذا الكتيب فلم يعد ذا موضوع لأن وزارة التعليم لم تعد هى وحدها التى تقبل مبدأ الانسحاب . . وإنما هم أيضاً – سواء كانوا داخل الحكومة أو خارجها – استسلموا لهذا الواقع – ولو جزئيًّا– من خلال اتفاقيات فك الاشتباك التى بدأت بعد وقف إطلاق النيران . وبدأ معها الانسحاب المرحلى إلى حدود ما قبل ١٩٦٧ .

ونحن بغض النظر عن تعليق وكالة الأنباء الفرنسية على هذا الكتيب التعليمى الخطير الذى يعكس « تقلص إسرائيل وتساقط أوراق الدعاية الصهيونية التى جعلت منها دولة كبرى » – يهمنا أن نرى كيف كانت الكتيبات التى يلقنها الإسرائيليون لأطفالهم قبل حرب أكتوبر .

إن الصحفى الإسرائيلى « تامر مروز » يصف أسلوب تعليم أطفال إسرائيل ويحلله فى مقال له بصحيفة هآرتس – يقول فيه :

لقد كان من أبرز الظواهر التى تثير الألم والاستياء فى مجال أدب الأطفال فى إسرائيل ، ما نراه من سخف وبلاهة فى سلسلة كتب الأطفال التى تتحدث عن كيفية انتصار الأطفال الأبطال من الإسرائيليين على العرب البلهاء السذج ! !

ولم يكن الصحفى الإسرائيلى « تامر مروز » هـو وحده الذى بدأ يتنبه لأسلوب تعليم وتثقيف أطفالهم . فا هى ذى أم إسرائيلية لطفلة تبلغ من العمر ثمانية أعوام تقول : « لقد انتابتنى الدهشة عندما اطلعت على ما يقرؤه الأطفال،إننى لم أقرأ فى حياتى أسوأ من هذا الكلام .

وفى حديث لصحفى إسرائيلى قال أمين إحدى مكتبات تل أبيب : « إن معظم الكتب التى يقرؤها الأطفال تتحدث عن الطفل العبرى النقى الطاهر الذى ينتصر على العرب الخنازير الجبناء » .

* وهكذا يتأرجح الطفل الإسرائيلى الآن بين الكتب « التى تهيئهم لتقبل حقيقة أن دولة إسرائيل أصغر بكثير من تلك التى اعتادوها » وبين الكتب التى ظلت – تصور لهم العرب كخنازير جبناء يشتهون قتل الأبرياء .ويهمنا هنا أن نقول إن هذا الكتيب الذى وزعته وزارة التعليم الإسرائيلية لا يعنى أن مناهج التعليم هناك قد اتخذت كلها هذا الاتجاه . . فما زالت الكتب الأخرى تصدر وتنشر .

اسألوا حرب أكتوبر :

بمجرد أن توقف إطلاق النار ، بدأت الدراسات والتحليلات لآثار الحرب على إسرائيل ، وقد التقت جميعاً على أنها كانت بمثابة (الطوفان) ، وقد حاولت هذه الدراسات إلقاء الضوء من زوايا وأبعاد مختلفة على ما أحدثه فى إسرائيل طوفان السادس من أكتوبر ، أو الظروف التى قادت إليه . وقد شارك كثيرون من الأساتذة والخبراء والكتاب الإسرائيليين فى هذه الدراسات . . كما اهتمت المعاهد والدوائر العالمية بتقديم رؤيتها هى الأخرى .

ومن الإسرائيليين الذين يحظون باحترام الجماهير والذين كتبوا عن الطوفان البروفيسور يعقوب تلمون أستاذ التاريخ المعاصر فى الجامعة العبرية ، وقد قال فى إحدى مقالاته :

« لقد سكب انتصارنا عام ١٩٦٧ نشوة القوة فى أفكارنا وتصرفاتنا وجرف معه كل اتزان ، وكانت القوة قادرة على كل شىء ، وكان النجاح مبرراً لكل شىء – وأصبح طبيعياً أن تسود بيننا العجرفة والاحتقار والاستهتار بالرأى العام العالمى .

ثم جاءت حرب السادس من أكتوبر فقوضت كل شىء . وأصبح علينا أن ندرك جيداً أنه بدون سلام لن يكون لنا وجود ، وأن قبولنا بحدود أضيق لا يعنى فناء إسرائيل . وخاصة أن مسألة الحدود الآمنة التى سادت بعد ٦٧ . . لم تعد مقبولة . .

... و . . اسألوا حرب أكتوبر ! !»

قرون إسرائيل . . انخفضت . . ثم تلاشت :

قال الكاتب الإسرائيلى الياهو عميكام فى مقال له بصحيفة يديعوت أحرونوت فى ١٩٧٤/٨/٩ » :

إن الانتصار العربى فى حرب أكتوبر قد فرض نتائجه حتى على العالم غير العربى . . فطيلة ست سنوات سمعنا من معلقينا من يقولون – وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامة حكيمة حمقاء – « إن قرون إسرائيل انخفضت فى العالم لأن العالم لا يحب المنتصرين ولكنه يتعاطف مع المهزومين » . هذا ما كان يقوله معلقونا الحكماء . . وعندما تحقق للعرب الانتصار العظيم فى أكتوبر ١٩٧٣ تبددت ادعاءات هؤلاء المعلقين وسقطت تقديراتهم السابقة إذ وجدنا أن دول أفريقيا قد سارت وراء عيدى أمين فى قطع علاقاتها مع الجانب المهزوم

– جانبنا – كذلك فعلت دول أمريكا اللاتينية .

وهكذا لم تعد قرون المسكينة منخفضة فقط ، بل إنها لم تعد قائمة على الإطلاق ! !

أخشى أن يحطم العرب عظامنا :

نعم . . هو نفسه دافيد اليعازر رئيس الأركان الإسرائيلى وصاحب التهديد الشهير بسحق عظام العرب (كما ورد فى الصفحات السابقة) هو نفسه الذى أعد بياناً بعد فشل الهجوم المضاد – وكان سيذيعه فى التليفزيون مساء ٨ / ١٠ / ٧٣ لولا تدخل المسئولين عن رفع المعنويات . . ومنعهم لإذاعته .

ويقول اليعازر فى هذا البيان (كما يروى الصحفى الإسرائيلى حايم إيزاك فى صحيفة معاريف الصادرة بتاريخ ١٩٧٣/١٢/٢٨) « خرج اليوم جيش الاحتياط إلى هجوم مضاد ، ولكن على أن أبلغكم بصدق أن هذا الهجوم فشل فشلا ذريعاً ، وأن قوات العدو فى البر والجو ، قوات هائلة ، حتى أجدنى مضطراً إلى الخوف من أن يحطموا عظامنا . إن أقصى ما نستطيع توقعه – فى الظروف الحالية – هو أن يكتفى المصريون بصدنا فى سيناء ! ! »

العقاب . . على السنوات السمان :

تعبيراً عن آثار الطوفان على المجتمع الإسرائيلى كتب مارك سيجال فى جريدة جيروزاليم بوست :

يطرح الإسرائيليون الآن أسئلة تخوض فى الأعماق البعيدة للأمور تصل إلى جذور أصولنا وهويتنا والمزاج السائد فى بلادنا الآن .

إننا كما لو كنا قد استيقظنا فجأة من حلم جميل وكما لو كانت حرب أكتوبر لم يكفها أنها صدمتنا فى آمالنا المادية لكى تصدمنا فى مشاعرنا أيضاً .

إن هناك إحساساً بأننا نلقى عقاباً على السنوات السمان التى قضيناها قبل هذه الحرب . وكأنها لعنة كتبت علينا . إن حرب عيد الغفران هبطت على شعبنا دون انتظار وفجأة سمعنا الأصداء المخيفة لما حدث لنا وتغير العالم حولنا » .

حين تكون الدولة . . بدون تقاليد :

لم يتوقف المعلقون والمحللون الإسرائيليون عند الإحساس الواعى بتقلص حجم دولتهم أو بتحديد أكثر – تكشف الحجم الحقيقى لها بعد أن جرف طوفان أكتوبر كل أوراق الدعاية التى كانت تجعلها فى صورة الدولة الكبرى – لم يتوقف هؤلاء المعلقون عند هذا الحد . . بل إنهم أخذوا يحللون الواقع الإسرائيلى . . ويكتشفون مظاهر الخلل الجذرى فى بناء هذا الكيان . . بل إن الأفراد العاديين بدأوا يتساءلون عن جذور أصولهم وهويتهم بما فى ذلك من فقدان للثقة فى أسس بقائهم .

وإن كان هذا المفهوم قد اتضح تماماً فى مقال مارك سيجال (العقاب على السنوات السمان) فإنه يتضح أكثر فيما قاله « ميخائيل فيدمان » فى ندوة معاريف التى نشرت فى ١٦ / ٩ / ١٩٧٤ فنجده يقول :« إن إسرائيل ليست إلا دولة جديدة ومعظم سكانها من المهاجرين وينقصها التقاليد العريقة التى تستطيع أن تساعدها فى التغلب على مثل هذه الأزمات . .

إسرائيل « التى كانت لن تكون » :

وجيشها كالعامل الذى يحتاج دائماً إلى مائة ليرة أخرى حتى يكمل الشهر :

هذا معلق وخبير آخر له وزنه فى إسرائيل على الأقل ، فهو كبير معلقى صحيفة « هآرتس » للشئون الأمنية ، وقد عمل مراسلاً حربيًّا منذ الستينيات فى فيتنام والشرق الأوسط ، إنه المحرر العسكرى زئيف شيف ، الذى نشر دراسات عديدة عن حرب أكتوبر ، وصدر له أخيراً كتابه « زلزال فى أكتوبر » – ونحن نتوقف أمام ما قاله من الزاوية التى يدور حولها هذا الفصل فنراه يقول :

« إن إسرائيل التى كانت » لن تكون .

إن مصدر الهزة التى واجهت إسرائيل فى الأساس هو فى الإحساس بأن الدولة قد عادت فجأة إلى مراحلها الأولى ، قد وجدت نفسها تقف مرة أخرى أمام مخاطر تحيط بوجودها ، ومرة أخرى تأكدت إسرائيل أن هزيمتها فى معارك محلية كبيرة قد يعرض وجودها أيضاً للخطر » .

وفى جانب آخر من دراسته يقول زئيف شيف :

لقد أكدت حرب يوم الغفران أن الإسرائيليين شعب صغير ، وكالعامل الحذر فى ميزانيته والذى يجد مع ذلك أنه ينقصه دائماً مائة ليرة إسرائيلية حتى يكمل آخر الشهر ، فكذلك حال الجيش الإسرائيلى إذ ينقصه دائماً تشكيلة واحدة كبيرة ، أو عدة تشكيلات .

* * *

ونكتفى بهذه الأمثلة لما اعترف به الإسرائيليون أنفسهم من انهيار كامل لصورة إسرائيل الكبرى ، كما كانوا يؤكدون من قبل ، وظهور حجمها الحقيقى كدولة صغيرة . . بلا تقاليد عريقة . . يبحث سكانها عن أصول هويتهم وجذورهم . . يعتمدون كل الاعتماد على حليفة كبرى لتحفظ لهم بقاءهم مستجيبة لاستغاثاتهم . . وصرخاتهم . .

أقول نكتفى بهذه الأمثلة . . لنتوقف الآن أمام أمثلة أخرى لرؤية العالم الخارجى لإسرائيل – بعد الطوفان . .

دير شبيجل . . . ترى الصورة الجديدة :

لم تكن إسرائيل وحدها هى التى أفاقت على الحقيقة الثابتة حين تدفق طوفان أكتوبر – فقد فتح العالم كله عينيه ليستوعب الصورة الجديدة لمنطقة الشرق الأوسط . . بعد أن حجب الانبهار بإسرائيل فى ١٩٦٧ سبل الرؤية الواضحة أمامه . ولعل هذا ما يترجمه بشكل محدد جداً موقف جريدة دير شبيجل الألمانية الغربية . . فبعد أن أعلن رئيس تحريرها – كما أوردت فى الصفحات السابقة – أنه سيجبر محررى الجريدة على تعلم اللغة العبرية والكتابة بها لأنها لغة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر . . خرجت الجريدة بعد أيام من حرب أكتوبر (فى ١٩٧٣/١١/٢٢) لتقول :« إن اجتياح المصريين لخط بارليف ، جعل الأمة العربية بكاملها تنفض عن نفسها آثار المهانة التى تحملت آلامها منذ ١٩٦٧ » هكذا اعترفت الجريدة الألمانية بأن ما حدث فى ٦٧ . . لم يشطب من خريطة المنطقة كل شىء . . . لتبقى فيها إسرائيل وحدها وإنما كان ما حدث شيئاً عارضاً . . ما لبثت الأمة العربية أن نفضت عن نفسها غباره ، وبالتالى فإنها حطمت كل الأساطير التى أحاطت بإسرائيل .

الدولة التى تحولت إلى سلم خشبى غير مترابط :

مرة أخرى مع المؤلف الفرنسى جان كلود جيبوه . . فى تحليله لآثار الطوفان الذى فجره العرب فى أكتوبر ٧٣ حيث يقول :

« إن الشكوك ، كل الشكوك التى تحتويها دولة إسرائيل الجديدة ، قد انبعثت مع الانهيار الذى أحدثه يوم كيبور (حرب أكتوبر) وفى وسط أسبوع السكوت ٣٧٣٤ القاسى ها هى تلك الشكوك تطفو من جديد فى الضمائر وقد تشابكت وامتزج بعضها ببعض .

إن إسرائيل تنجرف وسط الحطام ولم تعد الدولة اليهودية فى تلك اللحظة سوى سلم خشبى هش غير مترابط كما ينبغى له أن يكون » .

الاحتفال الحزين :

قالت وكالات الأنباء : كان احتفال إسرائيل بالذكرى الخامسة والعشرين لقيامها . . الذى وافق ١٥ مايو ١٩٧٣ . . آخر احتفال بعد يونية ١٩٦٧ . . لأنه أعقبه بعد شهور قليلة نشوب الحرب الرابعة فى أكتوبر ١٩٧٣ – فماذا كانت صورة الاحتفال بالذكرى السادسة والعشرين الذى وافق ١٥ مايو ٧٤ أى بعد حرب أكتوبر بستة شهور تقريباً ؟ ؟

التاريخ ١٥ مايو ١٩٧٤ :

المنظر :

متغير تماماً – شكلاً ومضموناً – عن آخر احتفال . فإسرائيل اليوم تقيم الاحتفال السنوى لكنه هذه المرة . . كئيب حزين مر المذاق تحتويه الرهبة . جماهير الشعب ورجال الحكومة وأعضاء الكنيست يبتلعون الإحساس بالأسى والانهيار ، إن إسرائيل اليوم تقيم حداداً علنيًّا على آلاف القتلى من شبابها الذين سقطوا (فى حرب الغفران) بالمقبرة العسكرية الجديدة فى « كريات شاؤول » حيث ترقد الجثث بلا حراك . ويقف الإسرائيليون منكسى الرؤوس ينظرون طويلاً ويبكون . النساء تضرب صدورهن بأيديهن ويجادلن القدر الذى أثكلهن . . هذه المرة لا احتفالات ولا زينات . . لا « فانتوم » ولا « سكاى هوك » ولا مدرعات ولا صواريخ . .

لقد بدأت صفحة جديدة فى التاريخ .

لن تكون . . كما كانت :

فى كتابه (الأيام المؤلمة فى إسرائيل) الذى عكس الكثير مما أحدثه طوفان أكتوبر فى إسرائيل ، يقول جان كلود جيبوه :

« ليس هناك اليوم من يعرف المستقبل الذى سوف تئول إليه إسرائيل وقد أصبحت تقف فجأة وحيدة فى عالم متغير ، على أن هناك شيئاً واحداً مؤكداً بما لا يقبل الشك وهو أنه لن تقوم بعد الآن ، وإلى الأبد ، إسرائيل كما كانت قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

إنهم معذورون فى قلقهم وخوفهم :

هذا المثال له شقان كلاهما يعكس آثار حرب أكتوبر ، ويتضح الشق الأول فى الموقف الذى اتخذته معظم دول العالم وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية من محاولات الحل السلمى التى سعت إليها جاهدة القيادة المصرية ، وكانت الاستهانة بهذه المحاولات وبالعالم العربى كله هى رد الفعل الوحيد تقريباً حتى إن وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر قال لشخصية مصرية كبيرة (حافظ إسماعيل مستشار الرئيس لشئون الأمن القومى فى ذلك الوقت) قال له كيسنجر فى فبراير ١٩٧٣ – أى قبل الحرب بشهور – « إنكم تتحدثون على حل سلمى عادل من وجهة نظركم كما لو كنتم المنتصرين فى يونية ٦٧ فلتكونوا واقعيين وعمليين » إن إسرائيل هى التى انتصرت فى ٦٧ ، وأنتم بوضعكم الحالى لا يمكن لكم – منطقياً – مواجهتها مرة أخرى عسكرياً .

ولكن ما إن اندلعت شرارة حرب أكتوبر ، وهدد الطوفان إسرائيل حتى سارعت دول العالم – وعلى رأسها – تماماً – أمريكا – إلى البحث عن حل سياسى . وبدلاً من لهجة الاستهانة قام الوزير الأمريكى برحلات مكوكية متعددة بين أطراف النزاع للوصول إلى اتفاقيات تنتهى بالحل الشامل والعادل .

هذا هو الشق الأوسط كما عبر عنه البروفيسور الإسرائيلى شمعون شامير بقوله « لقد استطاع العرب تغيير سياسة أمريكا للمرة الأولى فى الصراع العربى الإسرائيلى » .

– أما الشق الثانى فيترجمه ما قاله الدكتور هنرى كيسنجر ، ومساعده سيسكو فى حديثهما مع الفريق حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية (وقائد القوات الجوية المصرية فى أثناء حرب أكتوبر) .

قال وزير الخارجية الأمريكى :

« إنكم – فى مصر – لا تقدرون ماذا فعلتم فى أكتوبر ، ولا تعرفون صداه الذى ما زال يتردد هناك على الناحية الأخرى (إسرائيل) . . إنهم معذورون فى القلق والخوف الذى يشعرون به ، لأن عندهم حالة خوف وفزع من الجيش المصرى ، وليس عندهم أدنى أمان من المصريين ، فإنهم يخشون أن يتكرر أكتوبر مرة أخرى فى سيناء ولذلك تراهم يدققون فى كل شيء ، ويختلفون على أى شيء » .

هذا ما قاله كيسنجر . . أما مساعده سيسكو فقد قال أكثر من مرة موجهاً كلامه لنائب رئيس الجمهورية المصرية فى بعض اللقاءات التى جمعت بينهما :

« اسمح لى أن أقول لك إن أحداً لا يخشى ما صنعتم فى أكتوبر وما جرى فى الحرب مثل ما يخشاه الإسرائيليون ، فقد تركت عندهم حالة من الشك والقلق . إنهم فى حالة خوف منكم ، ويقولون ماذا يضمن لنا ألا يفعلوها ويعيدوا الضربة وقت اللزوم . . وقد تجيء هذه المرة من أبو رديس أو الممرات » .

* * *

فارق شاسع ومثير بين الصورتين . . صورة إسرائيل ما قبل حرب ٧٣ وصورة إسرائيل بعد هذه الحرب بما بينهما من هوة زمنية ونفسية وعسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

فارق شاسع وخطير بين الصورتين . . لا يمكن أن تحدثه حرب عادية إنه فقط وليس غيره « الطوفان » الذى ينتج عنه مثل هذا الفارق أو هذه الهوة الهائلة . . بل إنه الطوفان الذى يجتاح الصورة الأولى ويغرقها فى مياهه ودمائه . . ولا يبقى منها أى شيء – وفى الوقت نفسه يزيح الستار عن الصورة الثانية . . باعتبارها الصورة الحقيقية الخالية من مساحيق الدعاية الضخمة .